



إنه النظام نفسه الذي قتل ألوها من مواطنه في حماة قبل ثلاثين عاماً، وهو النظام نفسه الذي ارتكب مجازر لا يعلمها إلا الله في السجون المكتظة، والدهاليز المظلمة، آخرها مجزرة أظهرت الصور المسربة أن المجرم ماهر الأسد قد تولاها بنفسه إشرافاً وتنفيذاً ضد عُزلٍ مسجونين في سجن تدمر، ليس لهم إلا الله ودعاء منا أن يرحمهم ويقبلهم في الشهداء.

تاريخ مرعب من المجازر والقتل والتعذيب، وذكريات رسمها هذا النظام في قلب كل فرد من أبناء الشعب الصابر، الشعب الذي بشره الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بأنه ابن أرض مباركة لن يظهر متفاقوها على مؤمنها أبداً.

لكل فرد من أبناء هذا الشعب الصابر رواية تختلف أشخاصها وتتحدد مضامينها، من لم ينل نصيبه من الظلم والاستبداد والتعذيب في مملكة آل أسد، فله قريبٌ قد ذاق من ذلك الأمرين، ومن لم يكن له قريب فأحد أبناء ضياعته سيخبره بما لاقى وقاسي، وذلك كاف لبناء مملكة من الرعب والخوف بين أبناء هذا الشعب الصابر.

باختصار هو النظام الوحيد في المنطقة الذي يعادي شعبه، ويستميت في سبيل مقاومته، فهو نظام مقاوم كما يحب أن يعرف نفسه، وكما يحب أن يسمع من جوقة المزمرين.

لقرؤن عدة لم يفهم العالم ماذا يريد النظام من مصطلح المقاومة، فقد كان - وما زال - بعض الصم البكم يظنون أنه أراد مقاومة اليهود الذين لم يطلق نحوهم رصاصة واحدة منذ عقود، ولم يقتل منهم ولا جنديا واحدا، بينما استطاع النظام المقاوم أن يقتل - علناً - في شهر واحد من أبناء شعبه ما لعله يقارب الخمسمائة.. مقاومة من نوع آخر.

سيكولوجية بشعة تسيطر على هذا النظام، أشبه ما تكون بسيكولوجية مصاصي الدماء، فالدم مصدر بقائهم، والظلم مسرح تحركاتهم، والمشكلة أنهم أحد طرفي القضية.

أما الطرف الثاني فهو الشعب السوري، شعب صبر لعقود طويلة على مر العيش وظلف الحياة، متحملًا ظلم الأقربين، وغشم الحاكمين، فهم أبناء بلد واحد، وماضٍ واحد ويتطلعون لمستقبل واحد صبر كثيًراً ليس عن ذل وخنوع فهو الشعب الذي بلغت فتوحاته الأندلس غرباً والهند والسندي شرقاً.

ولكنه صبر على حد قول الحماسي:

قومي همو قتلوا أميم أخي

إذا رميتُ أصابني سهمي

فلئن عفوتُ لأعفون جلاً

ولئن سطوتُ لأوهنن عظمي

وُعد كثيًراً وانتظر طويلاً، ثم قرر أن يضع حدًا لهذا الإسفاف والتطامن الذي يعيشه في كل شيء، تطامنٌ سياسي واقتصادي وأخلاقي، وإسفافٌ في جميع جوانب الحياة.

ضاق ذرعاً بكل هذه الأشياء، فخرج ليقول للنظام: كفى، فقد آن لك أن ترحل، وأن لنا أن نعيش حياةً أحسن من هذه، وأنك ورم خبيث لا بد لنا من استئصالك؛ كي تصح أجسادنا، وتنبت لحومنا.

اختار الشعب منذ البداية إستراتيجيته في التغيير، إستراتيجية يعتمد فيها على تجارب نافعة ومثمرة في تونس ومصر: التظاهر من أجل نيل الحرية، وجعل شعار مظاهراته: سلمية سلمية حتى ننال الحرية، شعار راقيٌ كرقيك يا شعبي، كم يشعرني هذا بالفخر والاعتزاز بك.

وهذا هو الطرف الثاني في القضية..

النظام الحاكم ما زال يظن أن هذا الشعب هو نفسه الذي كان يُسام خسفاً فيقبل، وهو الشعب نفسه الذي قُتل آباءه في حماة وجسر الشغور وغيرها، وهو الشعب الذي جُوع وأذل وأهين، وهو الشعب الذي سيرهبه ويُخيفه أرذل الرصاص، وبلطات الشبيحة، لم يستطع النظام أن يفهم بعد أن الشعب قد تغير وأن العالم قد تغير وأن الشاعر الحماسي الذي قال ما قال أولاً، قد قال بعد ذلك:

لا تأمنْ قوماً ظلمتهمُ

وبدأتهم بالشتم والرغمِ

إن يأبروا نخلاً لغيرهمُ

والقولُ تحقرهُ وقد ينمِي

وزعمتُ أنْ لا حلوم لنا

إنَّ العصا قرعتْ لذِي الْحِلِمِ

نعم، إن الرصاصات اليوم أطلق لذى عزم وحلم وشجاعة..

سيستمر الشعب السوري بالظهور حتى ينال حريته، ويسقط النظام المجرم، الذي خان وطنه وشعبه، والشعب السوري معروف أنه شعب كريم يسامح كثيراً، ويغفر كثيراً، اللهم إلا شيء واحد لا يستطيع أن يغفره: الخيانة، فالشعب لن يغفر لمن خانه، والذي في أدبيات السوريين: أن الذي يقتل شعبه خائن!..

لن يستطيع الشعب السوري أن ينسحب أو يقف في وسط الطريق، فجسده الراكي مكلوم، ودماؤه الطاهرة عطرت الأرض..
ورياح الحرية قد بدأت تهب عليه.

في المقابل لن يسكت النظام أو ينسحب بسرعة، فاللته المدمرة متعطشة لدماء السوريين، وعناصره مصاصة الدماء تعلم أن وجودها مرتبط بوجوده، فمن هي لولاه، لذلك بقدر الألم الذي عصف بقلبي يوم الجمعة العظيمة لسقوط هذا العدد الكبير من الشهداء إلا أنني لم أستغرب هذا الإرهاب والقتل، وكانت أتوقعه في أي لحظة، فالنظام له أدبياته كذلك، أدبيات لا أدب فيها ولا أخلاق، ما هي إلا هجيري قذرة، وشنشنة نعرفها من أخزم..

الشعب سيتظاهر، والنظام سيقتل، والسؤال أين الضمير العالمي؟

لا أقول على العرب كثيراً فهم مفسدون دائمًا، ولم يكن لهم دور يذكر في الأحداث العربية التي حصلت مؤخراً، اللهم إلا بعض السلبية، والجامعة العربية ما زلت خرساء، وأمينها العام - وهو جزء من منظومة المحنطين العرب - لم ينبع بذاته شفاعة، ولم يقل ذا بال، الضمير العربي ميت يا سادة، عمرو موسى هو الذي ألحده في قبره، والضمير العالمي في إجازة..

عجب هذا النظام السوري، له خصوصيته الغربية، فهو النظام الوحيد في المنطقة الذي يتفق عليه الأمريكان واليهود والأتراك والإيرانيون وجماعات المقاومة الفلسطينية، إنه منافق بامتياز، يستطيع أن يجمع بين الطم والرم، والحوت والضب.

السوريون اليوم لا يعولون على غير الله، ولا ينتظرون نصراً إلا منه، كربهم شديد، محنتهم عظيمة، وليس لها من دون الله كاشفة.

ولكن ألا يوجد في العالم أحرار، هل سيبقى العالم متعامياً صاماً أذنيه إزاء القتل الذي في سوريا، متى يستيقظ الضمير العالمي، كم يحتاج العالم أن نهرق من دمائنا على تراب سوريا كي يستيقظ ضميره.

وكم يريد منا أن نقدم قربانا من شبابنا كي ينتبه لنا!

أسئلة كثيرة وأخرى غيرها سنعرف أجوبتها في بحر هذا الأسبوع!..

اللهم انصر شعبي المظلوم وكن له مولى ونصيرا فإنه لا مولى له اليوم إلا أنت..

المصادر: